مجموعة قصصية

ليلة النطق بالحكم

سراج النيل الصاوى

إهـداء

إلى رموز العدالة ..

رجال القضاء والمحاماة والنيابة

أهدى (ليلة النطق بالحكم)

المؤلف

شجاعة خوف

كعادتها كل صباح ... توقظ صغيرتها مبكراً ... تحرص اليوم على ارتداء الابنة ملابس صوفية أسفل مريلة المدرسة ... منبهة عليها بألا تخلع القفاز الجديد من يديها ... فالطقس شديد البرودة .. وتجتاح البلاد موجة صقيع بارد ... هكذا تحذر الأرصاد الجوية .

تضع الأم الفطائر بحقيبة المدرسة ، وكذا ظرفاً بداخله رسالة بموافقة ولى الأمر على مشاركة الصغيرة فى رحلة الغد . لا تنسى الحفيدة أن تقبل جدتها قبيل الخروج ... فهى تمنحها غالباً قطعة معدنية من النقود لشراء حلوى ... تهبط الأم درج السلم ممسكة بيد الصغيرة ... تسحبها إلى الشارع ... الضباب يعم المنطقة ... الهواء الساخن يخرج من أفواه المارة عند تحدثهم محدثاً شبورة صغيرة تداعب وجوههم .. تعيد الأم تحذير ابنتها من خلع القفاز ... يعبران الشارع إلى الرصيف المقابل حيث توجد به المدرسة على بعد مسافة قريبة ...

هنا فقط تترك الأم يد الصغيرة ... و فى حزم تردد عبارتها التى لا تمل من تكرارها :
ـ طوالى على المدرسة ... جرى .

كل يوم تسرع الصغيرة الخطى ... و تفعل مثلها الأم ... لكن فى عكس الإتجاه ، محاولة الوصول إلى عملها قبيل الموعد المحدد

لكن هذا الصباح ... لم يكن مألوفاً بالنسبة للصغيرة ... فقد جعلها البرد الشديد تسير منكمشة ... بطيئة الخطى . لم تكد تمشى عدة خطوات قليلة ، إلا ويصل لأسماعها مواء قطة يتعالى .

تتوقف عن السير تتلفت يميناً ويساراً ... تفتش عنها بعينيها ، تجدها قطة جميلة ... تتعاطف معها سريعاً ، فهى صغيرة مثلها ... كم هى تحب اللعب مع القطط الصغيرة !. لكن القطة كانت فى حالة خوف وفزع ... واقفة أعلى جدار حديقة مرتفع ...

تبحث فى حيرة عن موضع آمن تنزل منه . لعلها وصلت إلى هذا السور بالقفز إليه من فرع الشجرة المتدلى نحوه ، الصقيع جعل القطة ترتعش بشدة ؛ فازداد تعاطف الصغيرة معها .. أخذت تحدثها :

ـ بس .. بس .. خائفة ؟... تشجعى ... لا تعرفين طريقة النزول ؟

ـ نو ... نو.

ـ إنزلى على الحائط قليلاً ... ثم إقفزى للأرض .

ـ نو ... نو .

ـ لا تخافى ... قطتنا تفعل ذلك .

ـ نو ... نو .

يســـتمر الحوار ... ويتعالى المواء ... وتزداد القطة خوفاً وارتعاشاً .

... ينتاب الصـــغيرة الحيرة ... فهى قصـــيرة ... " آه لو تطول يداى فأمسك بالقطة ... سأدفئها بصدرى ... لا سبيل أمامى إلا أن استنجد بالمارة " حدثت الصغيرة نفسها .

ــــــ "عمو"... "عمو" ... القطة خائفة أن تنزل ... أنزلها لو سمحت .

ــــــ "تانت".. " تانت" .. القطة ترتعش من البرد .. أنزليها من فضلك.

لكن المارة ، وهم فى عجلة من أمرهم ، لا يأبهون ... البعض منهم كان يبتسم للصغيرة فقط .

يأتى على مهل شيخ مسن .. منحنى الظهر ... يتكئ على عصا غليظة ... يتشرنق داخل معطفه من الصقيع ، تستوقفه الصغيرة.

ــ "جدو" ... "جدو" ... القطة ترتعش من البرد ... تريد النزول لكنها تخاف ... حضرتك تستطيع إنزالها ؟.

... يتوقف المسن ... وهى فرصة ليستريح قليلاً ... يطيل النظر إلى القطة المرتعشة مثله ... يشفق عليها ... ويتعاطف معها هو الآخر .

يقول للصغيرة بحنان وهو يبتسم :

ــ سأرفع العصا إلى حافة الجدار وأسندها عليه ... لعل القطة تنزل عليها .

ما يكاد المسن يرفع عصاه لأعلى ... والاقتراب بها إلى حافة الجدار ، إلا وتقفز القطة فزعة من العلو إلى الأرض مباشرة ... ثم تفر هاربة إلى داخل المسكن المجاور ... تفرح الصغيرة وتطلق لساقيها العنان لمدرستها .

طمأنينة

ذات صباح ... تنتهى من صبغ شعرها بالحناء ... تتأمله فى المرآة المكسورة ... يكتسى وجهها بعلامات الرضا ... فقد كان اللون الأبيض ـــ لكسلها ـــ يغطى كل رأسها ... فأكياس الحناء ملقاة بإهمال بدولاب ملابسـها منذ فترة ... لكنها عندما تهم بصـبغه سـرعان ما يفتر حماسـها فلا تفعل ... لانعدام العزيمة والدافع لديها .

فمنذ سـنوات بعيدة ... وهى تعيش بشـقتها وحيدة ... يغادرها الزوج فجأة للقاء ربه ... ثم ابنتها لبيت الزوجية ... لم يتبق معها إلا ابنها المتبرم دوماً من الدنيا ... فتطلعاته بعيدة رغم ضـيق ما فى اليد. حتى ولدها هذا ... يتركها ذات صـباح لإحدى دول الخليج للعمل بها .

أحياناً تشغل وقتها بمجالسة جاراتها المسنات ... لطيبتهن وأحاديثهن الشـائقة ... تسـعد هى بتلك الأوقات وتشـعر بالطمأنينة وهى بينهن .

أحياناً أخرى ... تقضـــى بعض وقتها فى الصـــباح ... بـالوقوف خلف شــيش النـافذة الموارب ... فى موعد مرور ساعى البريد ... لعله يسعدها بتسليمها رسالة من ابنتها التى تقيم بالريف حيث يعمل زوجها ... أو من ابنها يطمئنها فيها عن أحواله ... مرات قليلة تحمل رسـالته ما يبشـرها لصـرف مبلغ من المـال من أحد البنوك ... فتدمع عيناها وهى تدعو له ... تتساءل :

- و هل تغنى النقود عنك يا ولدى ؟ .

بالرغم من معرفتها القراءة والكتابة ... إلا أنها تفضـــل أن تكتب ســامية ابنـة الجيران ردها على بعض الخطابات ... فســامية ذات خط جميل ... وهى تحبها وتتمنى أن تكون عروساً لابنها ، الذى تلح عليه الأم فى رسالتها الأخيرة بالعودة ، اكتفاء بما جمعه من مال فى تلك السنوات .

* * * *

ظهيرة يوم ... يصـــلها رد ابنها على رســالتها ... مؤكداً عدم عودته إلا بعد أن يكتمل لديه مال وفير ؛ ليقيم به مشروعاً تجارياً وليشــترى شــقة فاخرة بمكان راق ... بعيداً عن حارتهم تلك .

تشـعر الأم بضـيق شـديد ... فهى لا ترغب فى ترك الحارة أو الشــقة ، فأهل الحارة وجيرانها بالســكن أناس طيبون وأهل شـهامة .. فضلاً عن أن شقتها قضت بها أسعد لحظات حياتها .. وجدرانها وإن بهتت ألوانها .. فإن زيتها لم يزل يشـــع منه الدفء والحنان .. فتلك الحوائط تذكرها بزوجها .. وبأحاديثه معها لاختيار ألوانها ؛ ليتناســب مع لون الأثاث .. الذى تعتز بكل قطعة فيه .. خاصــة كرســى الزوج المفضـل لديه ، والذى كثيراً ماتتحسسه بحنان عند تنظيفه .

*** * * ***

ليل ذلك اليوم ... تلقى بجسـدها على السـرير ... بعد أن أتعبها التفكير عن أحوالها ... عند عودة ولدها وشـراء الشـقة الفاخرة والتى بالقطع سـتفرش بأثاث جديد يليق بها . تسـأل نفسـها ... هل ياترى سـتمنحها الشـقة الجديدة الطمأنينة التى تشعر بها حالياً ؟.

ولم تهتد إلى إجابة .

تتقلب فى فراشـها محاولة النوم ... لكنه يجافيها . تنهض واقفة أمام النافذة ... توارب الشيش لتطل منه على الحارة التى يعمها السكون ... اللهم إلا من سماع لوقع بعض الأقدام على الأرض أثناء سيرها .

على ضوء أحد المصابيح يلفت انتباهها .. خروج فأر من فتحة صـغيرة مكسـورة بالغطاء الأسـمنتى لبالوعة الصـرف الصـحى ... تشـمئز ... لكنها تتابع تحركه ... إنه خائف ... يتحرك كثيراً يميناً ويسـاراً ... لعله يبحث عن شـئ يأكله ... عندما يسمع وقع أقدام ... يسرع إلى البالوعة محتمياً بها ... ثم ما يلبث أن يخرج .

تلاحظ ابتعاده كثيراً عن البالوعة ... يغيب عن نظرها فترة غير قصـــيرة ... تظن أنه ســيهجرها لمكان أفضـــل ... لكنها تكتشف عودته إليها مرة أخرى ... ويستقر مطمئنا بداخلها .

تتساءل فى صمت متعجبة :

ـــــ لِمَ يعود إليها ؟! كان فى اســتطاعته العيش بأماكن أخرى أفضل !.

لم يطل تفكيرها لمعرفة الإجابة . بعدها غلقت الشـيش ... ومددت جســدها بهدوء على الســرير ... وقد ارتســمت على شــفتيها ابتســامة رقيقة ... عازمة على التمســك بجيرانها وبشقتها والأثاث الذى تحتويه .

وفاء!

مذ كان جرواً صــغيراً يلعق اللبن ... حتى صــار كلباً كبيراً يقرقض العظم . لم يأكل ... لم يشــرب طوال حياته أبداً ... إلاّ من يد صاحبه ... الحنون دوماً على كلبه .

المتعة الفائقة لســيده ... قذف الكرة بيده ... لتذهب بعيداً بعيداً ، فيطير "ركس" إليها ... قابضـــاً بأســـنانه عليها ... ليقدمها لصاحبه سعيداً.

كان ســيده ذا جاه ومال ... له زوجة تُدعى وفاء ... ذات حسن وجمال ... ترفرف السعادة على قصرهما ... فجأة يتغير الحال ويزول المال ... يُرهن القصــر ... وتخشــى الزوجة الفقر ... فتبادر بخلع الزوج .

يحضــر المالك الجديد لاســتلام القصــر ... فينبح "ركس" نباحاً شــديداً ... ويكشــر عن أنيابه ... فيُســر المالك به ... ويبدى لصــاحبه عن إعجابه ... عارضــاً لشــرائه مالاً وفيراً ... كان الإغراء كبيراً ... فيقبل بيعه !.

تمر الأيام ... يشـتاق الصـاحب القديم للكلب لرؤيته ... ولو من بين أسـياخ الحديد لسـور الحديقة ... لا صـوت ... لانباح ... لم يجده ... يسأل عنه مالك القصر ... يجيبه :

ـ منذ أن اشتريته منك لم يأكل ولم يشرب إلى أن مات .

يرجع صـاحب الكلب القديم بخطى حزينة ... متذكراً أن "ركس" مذ كان جرواً صغيراً يلعق اللبن ... حتى صار كلباً كبيراً يقرقض العظم ... لم يأكل ... لم يشـرب خلال حياته أبداً ... إلا من يده ... حيث كان حنوناً عليه!.

مشكلات!

فى الصــباح، تجلس مهمومة وحيدة بحديقة بيتها، تســند العصا التى تتكئ عليها إلى ذراع المقعد، تقفز قطتها "الشيرازى" نحوها لتستكين بحجرها، تلازمها كظلها،تتحسس السيدة بيدها شـعر القطة الناعم، بالها مشـغول بعدة مشـكلات.. تراها كبيرة ... تزفر زفرة قوية وهى تحادث نفسها :

ــــ المشاكل لما تجئ .. تجئ بالجملة، مشكلة " بوسى" تحتاج لحل ســـريع ... فالآن وقت تزاوج القطط ... فى الســـنوات الماضية .. كنت أعلن فى جريدة " الوسيط " عن رغبتى فى تزاوج قطتى من قط " شـيرازى" أصـيل مثلها، كانت تصـلنى فور الإعلان عدة مكالمات.. ويتم التزاوج.. وتحمل " بوســى" .. ثم تلد عدة قطط .. بعدها بأســـابيع أفرغ من بيع أولادها بسـهولة.. كانت العملية سـهلة ومربحة.. لماذا تتعقد الأمور هذا العام حيث لم يتصل بى أحد ؟ رغم تأكدى من صحة رقم تليفونى المنشور بالإعلان.

عاودت إخراج الزفير من صدرها متأففة :

ـ وتهل المشكلات متعاقبة .. فها هى " سوزى" تأتى بمشكلة لا أجد لها حلاً .. تخبرنى بأن زميلها بالكلية .. يطلب يدها للزواج .. يعرض عليها زيارتنا مع أهله فى الموعد الذى تحدده له .. أحمق .. كان معى حق حين رفضت طلبه بشدة .. ألا ينتظر إلى أن يتخرج ويلتحق بعمل؟ .. ألا يعلم بأن البطالة تفشت فى البلد؟ .. غضبت منى " سوزى" .. فلتغضب كما تشاء .. أنا أدرى بمصلحتها .. خرجت هذا الصباح حزينة ودون أن تتحدث معى كعادتها .. حمقاء هى الأخرى.

يقطع تفكيرها صوت مواء قط .. ها هو القط البلدى الذى دأب على دخول الحديقة متلصصاً من سياج السور .. لم يزل يتردد على الحديقة ولم يتعظ من ضربه بالعصا كلما أتى .. فلديه إصرار غريب منذ علم بوجود قطة هنا .. اقترب من السيدة ... ازداد مواؤه عندما رأى " بوسى" جالسة بحجر سيدتها ..

. بخفة وهدوء أمسكت السيدة بالعصا ثم ضربت القط فجأة على ظهره ... فر متوجعاً إلى سياج السور هارباً ، أصيبت السيدة بالدهشة لرؤية " بوسى" تفر هاربة هى الأخرى وتلحق به .

يمر وقت طويل من اليوم ولا تعود " بوسى " للحديقة أو البيت .. فتحزن السيدة .. كما لم تعد " سوزى" من الكلية .. فيزداد حزن السيدة .. وتبرز فى مخيلتها ظاهرة "الزواج العرفى" .. فتجزع .. تنهار. أخيراً تعود ابنتها الحزينة .. تفاجئها أمها بالابتسامة العريضة على وجهها قائلة :

ـ سوزى .. ادعى زميلك لزيارتنا باكر مع أسرته.

اعتراف ... قبيل الرحيل

انتهت أمى ـ الراقدة فى فراش المرض ـ من شرب عصير البرتقال الذى أعددته لها... شَـعَرَت بتحسـن نسـبى أزال عنها شـعورها بالإعياء... حاولت أن أعطيها تفاحة لتقضـمها لكنها أبت... شهيتها للأكل معدومة، أصبح جسمها هزيلاً... فعل بها المرض الكثير... الأطباء يحاولون ولاجدوى... نظرت لى فى حنان... قالت:

ــ وفروا فلوسكم... لا داعى للأطباء... أصبحت مسنة... إنها أمراض الشيخوخة... ولكل أجل كتاب.

ـ لا تقولى هذا... لا يزال العمر أمامك طويلاً.

ابتسمت ساخرة:

ـ طويلاً!... هى مسألة أيام... وربما ساعات... أود أن أعترف لك بشئ حبيس فى صدرى... أخفيته عنك أكثر من عشرين عاماً.

انتابنى القلق... ما السر الذى ظل حبيساً فى صدرها طوال هذه المدة؟ ... لابد أنه سر خطير... سكتت فترة غير قصيرة... ثم تأوهت من ألم كشكة الدبوس فى قدمها... أود أن استعجلها فى سرد ما أخفته عنى... لكنها تحدثت فى أمر آخر... قالت:

ـ تتذكر العجلة التى اشتريناها لك بمناسبة نجاحك فى الشهادة الابتدائية... كنت متفوقاً فى ذلك العام.

. بالطبع أتذكرها... وكنت سعيداً بها.

ـ وهل تتذكر عودتك ذات يوم للمنزل وأنت تجرها والدماء تلطخ وجهك ويديك... وكانت ملابسك ممزقة؟

ـ أتذكر... كأنه حدث بالأمس... كانت الشوارع خالية وقتها... وكنت أقود العجلة بسرعة كبيرة... ثم أترك المقود رافعاً يدىّ لأعلى... فعلت ذلك أكثر من مرة... وفى إحداها دخل إطارها الأمامى فى تجويف قضيب الترام.. فاختل توازنى.. وسقطت من عليها زاحفاً على الأرض بقوة عدة أمتار... فتسلخ جلد وجهى ويدىِ وركبتىِّ... ونزف الدم منى كثيراً وقتها.

ـــ هذه الحادثة جعلتنى فى حالة رعب دائم كلما خرجت بعدها للفسحة بالعجلة... داعية لله أن تعود سالماً.

ــــ كنتِ ستعترفين لى بشئ حبيس فى صدرك.. لماذا تغيرين الموضوع وتتحدثين عن ذكريات قديمة؟

. عندما نكبر فى السن.. نتذكر الأحداث القديمة جيداً...

. ولِمَ تذكرتِ تلك الحادثة الآن؟

ــــ تذكرتها عندما رأيت الخوف فى عينيك عنما خرج ابنك راكباً العجلة التى أهداها له عمه الأسبوع الماضى.

ــــ فى أول الأمر كانت العجلة تسعدنى.. ثم أصبحت تشقينى.. عندما يتكرر تسرب الهواء من إطاراتها واضطر لجرها للإصلاح.. اعتقدت بأن ذلك راجع لرطوبة البلاط.. نصحنى أصدقائى بأن أضعها على خشب.. فعلت ذلك ولا فائدة.. فسؤ الحظ حالفنى كلما سرت بها فى الشوارع حيث تدخل المسامير والزجاج فى إطاراتها.

. وأخيراً بعتها لبائع اللبن الذى كان يحضره لنا كل يوم.

. بعتها بثمن مرتفع.. كفى ذكريات.. وقولى ما الذى كنت تودين البوح به؟

. سأقوله لك... لكن أطلب منك مسامحتى.. اوعدنى يا ابنى؟

انتابنى القلق أكثر.. تشـتت فكرى لهواجس عديدة.. أجبتها وأنا فى لهفة لسماعها:

. أعدك.. مهما كان السر.

ـــــ أنا التى كنت أخرم إطار العجلة.. وأنا التى طلبت من بائع اللبن أن يعرض عليك شــراء ها ودفعت له جزءاً من ثمنها الذى أغراك ببيعها.

دمعت عيناى.. فى صمت أمسكت بيدها أقبلها.. داعياً لها فى سرى بطول العمر.

تدريب على المحادثة

منذ أن وطأت أقدامهم باريس ... مبعوثين من جامعة جنوب الوادى ؛ لنيل الدكتوراه ... وهم يقضون عطلة نهاية الأسبوع فى زيارات للمتاحف الشهيرة صباحاً ، أو التسكع بالحى اللاتينى ... أو بشارع الشانزليزيه.

أحياناً ... يفضلون الجلوس على الأرائك الخشبية بحدائق لوكسمبورج ... خاصة فى أيام الشتاء التى تطل فيها شمس باريس النادرة عليهم ... يستمتعون برؤية الحديقة التى تزداد حسناً ؛ لتنسيق زهورها... وهم لا يملون من تكرار الزيارة لها ؛ لأن المشرفين عليها يعيدون ترتيب أصص الزهور كل فترة .

لا يفتنهم فقط جمال الطبيعة .. فهم مولعون برؤية الفتيات بحسنهن ودلالهن .. لكن مشكلتهم أنهم حضروا إلى باريس ومعهم تقاليد صعيد مصر وحياء أهلها عند التحدث مع الغريبات عنهم .. كما أنهم ليس لديهم تجارب سابقة فى الحب ؛ لانشغالهم بالمذاكرة والعلم

لكن أصـــــغرهم على الشــــهير "بـالفِتِكْ" .. لـه محـاولات واجتهادات للخروج على تلك التقاليد وخلع ثوب الحياء ... فهو يفتعل الأسـباب الواهية لسـؤال الفرنسـيات بغية التحدث إليهن ... مثل :

ـ لو سمحت أين أقرب محطة للمترو .. أو للقطار؟

عندئذ تملأ وجهه الابتسامة العريضة وهو يستمع لشرحهن .. بعدها ينحنى بأدب ليشكرهن ، قائلاً بفرنسية رقيقة :

ـ شكراً ... شكراً كثيراً .

يرد على معاتبيه من زملائه ، قائلاً :

ـ عليكم أن تتحاوروا كثيراً مع فرنسيين إن أردتم إتقان لغتهم .

يعقب زميله القصير بقوله :

ـ لكنك يا" فِتِكْ" لم تحاور أبداً فرنسيين ... دائماً فرنسيات !.

فى عطلاتهم الأســـبوعية تلك ... يتناولون وجبة الغداء المفضلة لديهم وهى "ساندوتشات" الشاورمة التى يشترونها من أحد المحلات التونسية المنتشرة بسان ميشيل ... يفضلون تلك الوجبة لرخص ثمنها ... فرواتبهم الشـهرية لاتكفيهم إن تناولوا بعض وجباتهم بمطاعم باريس .

أما فى أيام الدراسـة فمطاعم الجامعة الرخيصـة هى المنقذ لهم من ارتفاع الأسعار .

ذات يوم عطلـة ... وهم يتسـكعون بوسـط باريس ؛ لمشـاهدة الملابس المعروضـة بالمحلات بمناسـبة تخفيضـات الأعياد .. إذ بهم يشـاهدون فتاة ، فارعة الطول ، ذات قوام متناسـق جميل ، ترتدى بدلة "جينز" زرقاء ، تجلس على أرض الرصيف ، ساندة ظهرها للحائط ، وممدة ساقيها للأمام، تاركة شعرها الكستنائى الطويل ، ينساب بإهمال ، فتزداد به جمالاً ، وتضع على صدرها ورقة مكتوب عليها بالفرنسية ، بخط واضح كبير عبارة " أنا جائعة ! ".

قال " الفِتِكْ " لزملائه :

ـ أنظروا ... لا أصدق عيناى .. أهذا الجمال كله وجائعة ؟

ما رأيكم ؟ .. ندعوها لتناول الغداء معاً بأحد المطاعم ؟

قال أحدهم :

ـ و من سيدفع قيمة وجبتها ؟

قال " الفِتِكْ " :

ـ تقسم علينا نحن الأربعة ... لننال جميعاً الثواب .

بعد تشــاور رفض الثلاثة ، فالراتب بالكاد يكفيهم ... ينظر "الفِتِكْ" إلى جسد الفتاة ويحاول إقناع زملائه ، قائلاً :

ـــ ستصبح صديقة لنا ... ستتحدث الفرنسية معنا ، وسوف تتحسن لغتنا .. إنه تدريب على المحادثة .

لكن ثلاثتهم يصـــرون على رفض دعوتها للغداء .. عندئذ يقول لهم " الفِتِكْ " :

. أنا سأدعوها بمفردى .

يتركهم ويتجه إليها ... بينما يواصل الثلاثة تسكعهم .

*** * * ***

فى المســاء يعود على إلى المدينة الجامعية .. يتقابل مع زملائه حيث يقيمون جميعاً بها ... هم فى شوق لسماع حديثه لمعرفة ماحدث ... أما هو فيظل فى صــمته فترة .. ثم يخبرهم فى سخرية :

. فور دعوتها للغداء ابتسمت .. مددت لها يدى لأساعدها على الوقوف .. ما أن وقفت إلا وأشــــارت بيدها إلى عملاق كان يقف بعيداً ؛ ليُقبِل ... قدمته لى بأنه صديقها .

. رحبت به مضـــطراً .. ودعوته للغداء هو الآخر .. كنت أثناء تناول الطعام أفكر فى ميزانيتى هذا الشهر .

قال قصيرهم بخبث شامتاً :

ـ لا يهمك يا على .. يكفى أنك تدربت على المحادثة بالفرنسية .

قال " الفِتِكْ " ساخراً من نفسه ، وهو يضحك :

ـ تبين أنهما يعرفان الفرنسية قليلاً .. هما برازيليان !.

ولع !

تسحره دائماً العيون الملونة ، يفتنه الشعر الذهبى المسترسل ، ينتشى برؤية السائحات الأجنبيات وهن يتسكعن بين محلات العاديات لشراء بعض الحلى الفرعونية المقلدة ، مرات عديدة يتطوع ليقدم لهن خدماته ليفوز بمتعة المصاحبة، ابتساماتهن تبهره ، يطلق على تلك الأيام ... الزمن الجميل .

اليوم ... أسعده كثيراً ما قرأه بالصحف .. الفرنسيون أصابهم ولع بكل ماهو مصرى ، يطلقون عليه " الايجيبت مونيا " ، سر سعادته أنه سيقضى بباريس عدة أيام ضمن وفد من شركته لشراء معدات من أحد المصانع الفرنسية .

سرح خياله بعيداً ، استرجع ذاكرته .. أيام العزوبية .. حيث الانطلاق والسهر حتى الفجر ، فكر فى كيفية التملص من وعده لزوجته باصطحابها معه إلى باريس ، شجعه على ذلك أن أعضاء الوفد الثلاثة سيسافرون دون زوجاتهم

ازدادت سعادته حين نظر إلى المرآة ، وجد بشرة وجهه أكثر سماراً عن ذى قبل ؛ لوقوفه كثيراً أثناء العمل تحت أشعة الشمس ، ابتسم ، فمعلوماته القديمة أن الأجنبيات بأوروبا يفضلن الرجال ذوى البشرة السمراء ! .

عندما هبطت الطائرة بمطار أورلى ، استقبلتهم كريستين رئيسة العلاقات العامة بالمصنع بجاذبيتها وجمالها الأخاذ ، طابعة على شفتيها ابتسامة رقيقة ، ساعتها .. شعر بسعادة غامرة وتفتح للحب قلبه ثانية ، كان قد ظن أنه غلق أبوابه منذ زواجه .. لكنه الآن يحس به وكأن دقاته تعلن أنه لا يزال متعطشاً للحب .

لم تمر عدة دقائق على سعادته تلك ، إلا ويشعر ببعض الغيرة والضيق نحو رئيس الوفد ، كانت كريستين تبتسم حقاً لهم جميعاً ، لكنها خصت رئيس الوفد بابتسامة أعرض واهتمام أكثر ، بل كادت تلتصق به أحياناً أثناء سيرها بجواره.

في طريقهم إلى الفندق ذى الخمسة نجوم .. تلاشى منه هذا الضيق بعد أن أقنع نفسه بأن عمل كريستين يحتم عليها الاهتمام أكثر برئيس الوفد ، فهو الذى سيوقع على عقد الشراء ، أما هو فيكفيه نظراتها الشقية نحوه بعدما لاحظت انبهاره بها . عندما وصلوا إلى الفندق طلبت منهم سرعة وضع حقائبهم فى الحجرات ثم الالتقاء بها ثانية فى المطعم لتناول وجبة العشاء . حدثتهم بالانجليزية حيث اكتشفت أنهم يجيدونها عن الفرنسية .

فى المطعم كانت به مفاجأة سارة ، فقد جلست فتاة جميلة من موظفات الشركة الفرنسية بجوار كل عضو منهم ، بينما جلست كريستين بجوار رئيس الوفد ، لم يعد يضايقه هذا الأمر .. فكلودين الجالسة بجواره ابتسامتها أحلى ، وتشع من وجهها الفتنة والجاذبية ونظراتها المعبرة تحملك إلى حلم جميل دون كلام ، وقد زادها جمالاً عطرها الباريسى ، حيث يطيرعبيره بمن يتنفسه لأجواء الحب الرومانسية .

ازداد فرحاً حين أخبرته كلودين بأنهن سوف يصاحبونهم بسياراتهن الخاصة لجولة بمعالم باريس ليلاً .. أسرعوا جميعاً بتناول العشاء .. وتذوقوا فى نهايته قطعاً من الجبن كعادة الفرنسيين .

بدلال قادت كلودين سيارتها الخاصة ، اصطحبته وحده معها ، ابتسامتها لم تفارقها لحظة ، ندم لأنه لم يتقن التحدث بالفرنسية ، إنه حقاً يقرأ ويكتب الفرنسية .. لكن المشكلة فى أذنيه اللتين لا تسعفانه فى فهم معانى بعض تلك الكلمات حين ينطق بها الفرنسيون لسرعتهم فى الحديث ، سارت تتحدث إليه ببطء شديد بعدما طلب منها ذلك ، فهم كلامها عندئذ وتشجع بمحادثتها ، قطعت بسيارتها شارع الشانزلزيه بطوله ، حيث الأنوار المبهجة ، مروراً بقوس النصر ، الإضاءة زادت الأماكن جمالاً وسحراً أعجبه رؤية المراكب التى تجوب بأنوارها مياه السين ، عادا للفندق عند منتصف الليل ، ودعته بابتسامتها الرقيقة وهى تحثه على الصحيان مبكراً للحاق بجولة سياحية قبل التوجه للمصنع حيث غداء العمل .

في الصباح بعد تناولهم الإفطار، تجمعوا ببهو الاستقبال، استقبلتهم كريستين بوجهها البشوش ، وكعادتها لم تفارقها الابتسامة ، أخبرتهم بأنهم سيقومون مع بعض نزلاء الفندق بجولة سياحية ، لم يجد كلودين ولا الفتيات الأخريات . امتلأ الأتوبيس السياحى بعشرات السائحين من جنسيات مختلفة ، كان من بينهم مجموعة عربية من تونس ، تصادق بسرعة مع أحدهم والذى جلس بجواره ، تابع كريستين وجدها تجلس بجوار رئيس الوفد ، لم يهتم فقد شغلته المرشدة السياحية ذات الرداء والقلنسوة الخضراء بلون عينيها ، عرفتهم بنفسها .. اسمها فرانسواز ، أضافت بأنهم سيتجهون إلى متحف اللوفر الشهير وبه العديد من اللوحات الفنية لكبار الفنانين .. ثم أكملت حديثها بنبرة تفاخر قائلة :

- " وستشمل الزيارة مشاهدة مقتنيات الجناح المصرى ، ويوجد به العديد من التماثيل الأثرية والمومياوات " .

كان سارحاً طوال حديثها فى جمالها ورقتها .. قارنها بالأخريات ، وجد أن فرانسواز أجمل من كلودين ، وجاذبيتها أطغى من كريستين .. عندما نزلوا من السيارة ، اقترب منها و همس قائلاً :

ـ أنا مصرى .

ابتسمت له ابتسامة عريضة ، انتشى ، آه من تلك الابتسامات التى تبهره ، أثناء تجولهم بالمتحف حرص أن يكون قريباً منها هو ورفيقه التونسى ، وحين وصلوا للجناح المصرى ، وقف كل السياح مشدوهين لروعة الفن المصرى القديم ؛ لألوانها الزاهية ، والتى بقيت على حالها رغم مرور السنين ، بينما ظلت المرشدة تتحدث لهم مرة أخرى بتفاخر .. وطال حديثها . طلب من رفيقه التونسى الذى يجيد الفرنسية أن يترجم له ما تقوله.. فهو لا يقدر على فهم حديثها لسرعتها الفائقة فى الحديث.

قال رفيقه :

ـ " إنها تتحدث عن شامبليون .. العالم الفرنسى الذى فك رموز الحروف الهيروغليفية المكتوبة على حجر رشيد الذى عثر عليه أثناء حملة نابليون على مصر .. ".

قاطعه متسائلاً :

ـ لكن قل لى .. ماذا قالت عن الفن المصرى القديم .. وروعة التماثيل .

ـ لا شئ .. لم تقل شيئاً عنه .

حدث نفسه فى صمت قائلاً :

ـ كيف ؟ .. وأين الولع الفرنسى .. " الإيجيبت مونيا " ؟ ..

انتابه شعور بالأسى والحزن ..

عندما توجهوا إلى المصنع بشأن المعدات المزمع شراؤها ، استقبلتهم فتيات العلاقات الجميلات ، ومن بينهن كلودين ، بالابتسامات والترحيب .. لكن هذه المرة لم تبهره تلك الابتسامات

بريجيت والفرعون

ياه ... بريجيت ... زمن طويل مضى على زمالتنا بالدراسة بباريس ... لكن ... ما الذى يدعونى الآن لتذكرها؟ ... ولم تحتل صورتها ذاكرتى بشدة هذه الأيام ؟.

وقتها ، كنت شـــاباً يافعاً ... كانت تجلس بجوارى بقاعة الدراسة ... لا أدرى إن كان وضعها هذا منحنى السعادة ... أم جلب لى الشـقاء ... فقد كنت أفكر فيها فى كل سـاعة ... بل فى كل لحظة ... لى العذر ؛ فهى فاتنة للغاية .

وجهها ، لا تمل من التطلع إليه ... بل أتحداك لو استطعت تحويل نظرك عنها . عيناها ، زرقتهما الصافية تجذبك بحنان إليها . فمها ــ ذو الشفتين الداعيتين للقبلات ــ عندما يبتسم ترى أسنانها ناصعة البياض .. فيزداد وجهها إشراقاً . أما الشعر المسترسل بنعومة على كتفيها ، والثائر دوماً لا يهدأ ، إذا ما تحرك الرأس ... فإنه يمنحها فتنة وجمالاً .

كنت خجولاً عديم التجربة ... لم أستطع أن أبوح بما أشعر به، وما أشتهيه ... كنت أسعد عندما تنادينى بصديقى الفرعون .

عند انتهاء الدرس ... يخرج الدارسـون من القاعة للراحة وتناول المشـروبات ... أحياناً أدعى كذباً بأننى لم أسـتوعب الدرس جيداً ... عندئذ تصـحبنى بريجيت لنجلس بعيداً عن صخب الرفاق ... تعيد لى الشـرح ببطء ... كنت أتلذذ لسماع حديثها ، وهى تشرح كيفية عمل الحاسب الآلى بالنظام الثنائى للأرقام ... ورغم أن حديثها كان علمياً خالصاً ... إلا أننى كنت أنتشى لسماع صوتها .

ياه ... يا بريجيت ... أتذكرك جيداً ... ما أحوالك ؟ ... أنا اعتلى الشيب كل رأسى ... لكنى أتساءل مجدداً : لم تحتل صورتها الآن مخيلتى ؟

ثم أتذكر ماحدث ذات يوم .. ونحن فى وقت الاستراحة ، خارج قاعة الدرس ... وجدت بريجيت غاضبة ،

وهى تتحدث مع زملائها الفرنسيين ... لتدعوهم إلى التصويت فى الانتخابات لليســـار غداً ... والبعض منهم يعترض عليها بشدة ... لكنها تصر على موقفها .

لم أشأ أن أتدخل فى حديثهم .. فهو شأن فرنسى خاص ، وغير مستحب لأجنبى مثلى لأن يحبذ رأياً على الآخر ... لزمت الصمت ... و أنا أتعجب من بريجيت التى تشغل نفسها بقضايا و"أيدولوجيات" اليسار ... إن مثلها لو شاءت لامتهنت التمثيل حيث الشهرة والمال وتضرب بعرض الحائط ببريجيت باردو .

وتظهر نتائج الانتخابات ... تقترب أصـــوات اليســـار المعارض من اليمين ... وتعاد الانتخابات لجولة ثانية ... حين التقيت ببريجيت بعد الإدلاء بصـــوتها فى الإعادة .. قلت لها مازحاً :

ـ بالقطع أعطيت صوتك لحزب اليسار .

ابتسمت ثم فاجأتنى بقولها :

ـ فى المرة السابقة أعطيت صوتى لليسار ... عندما تأكدت من وجوده على الساحة بقوة ...

أعطيت صوتى هذه المرة لحزبى اليمينى ... فأنا لست يسارية ... مصلحة فرنسا أن يكون بجانب الحزب الحاكم حزب قوى معارض .

عندما فازت المعارضة بمقاعد كثيرة ببلدى ، هذه الأيام .. عرفت السبب فى تذكرى بريجيت الآن .

قُبلة للوداع

منذ عودته للإسكندرية ؛ ليقيم بها نهائياً ، تاركاً خلف ظهره أمريكا بسوء معاملتها بعد أحداث سبتمبر ... وهو يقضى نهار عطلته الأسبوعية بالنادى .

فى يوم عطلته هذا ، وبعد أن ينتهى من رياضة المشى المحببة لديه يجلس فى حديقة النادى ، حيث يلتف حوله بعض أصدقاء المدرسة القدامى ، مع عدد قليل من معارفه الجدد ، يحكى لهم عن معلوماته الطبية الغزيرة ، عن متاعب القلب الذى تخصص فى علاجه ، مبيناً لهم طرق الوقاية من الذبحة الصدرية ، ناصحاً برياضة المشى لمن تجاوز العقد الخامس منهم ، وهم حوله يستمعون بشغف إليه ، فحديثه شائق يتخلله بعض الفكاهات والنوادر عن ذكريات طريفة فى طفولته ... وأحياناً تسمع ضحكاتهم بصوت عال على فترات متقاربة .

إذا كف عن الحديث للراحة ، تاركاً المجال لغيره ، ســـارع أحدهم بتوجيه ســـؤال له ... أحياناً يكون الســـؤال جاداً ... وأحياناً أخرى كثيرة تكون الأسئلة هزلية ... القصد منها إشاعة جو من المرح والمداعبة فى المجلس .

سأله أحدهم مازحاً :

- لم تحك لنا عن أول حب فى حياتك ؟

عندئذ يســترجع الطبيب فى ذاكرته صــورة الطفلة الجميلة "موزة" التى كانت تقطن فى الشــقة المجاورة لهم ... حيث كانا يلعبان سـوياً ويقضـيان معظم الوقت معاً ... إما فى شـقته أو فى شقتها ... أمام أعين الأهل.

يتذكر أيضاً أنه فور استيقاظه وتناوله الفطور يسرع لموزة طارقاً باب شقتها ... ولا يغادرها إلا باستدعاء من والدته لتناول الغداء .

مرات قليلة كان يعود قبل ذلك دامعاً ... إذا ما تشــاجر مع موزة ... لكن لا يمضى وقت طويل إلا وتأتى هى إليه ...

فيتصالحان ... وكأن شيئاً لم يكن ... قال :

ــــ " كنا فى عمر واحد ... لازلت صورتها بخصلة شعرها التى تغطى جبينها عالقة فى خيالى ... بل لازلت أتذكر فســتانها الأبيض بنقطه الزرقاء الذى ارتدته آخر مرة رأيتها فيها ... وهى تودعنى ... عندما نُقِل والدها للقاهرة للعمل بها ... ومقرراً أن تنتقل أسرته معه بكامل أفرادها إلى هناك " .

سكت قليلاً ثم أكمل :

ــــ " يوم مغادرتهم لشقتهم نهائياً ... تبادلت الأسرتان الوداع الحار على الســـلم ... عانقت أمى والدة موزة ... وقبلتها ، وبدورى أنا مقلداً أمى قبلت الصـــغيرة أمام الجميع الذين ضـــحكوا كثيراً ... والذى أتذكره جيداً أن الصـــغيرة بدورها احتضــتننى بشــدة ... ثم بكت ... لم أتمالك نفســى وبكيت أكثر ... ومنذ ذلك اليوم لم أر موزة مرة أخرى ... ولا أعرف عنها شيئاً ... خاصــة أننى ســافرت لأمريكا ؛ لأقيم بها كما تعلمون " .

ثم قال بتأثر :

ـ " كان معها أول حب ... وأول قبلة فى حياتى "،

بعدها مط شفتيه ... وهز رأسه يميناً ويساراً قائلاً :

ــ " حاولت كثيراً معرفة أخبارها ... ولا فائدة خاصة أننى نسيت اسم والدها ... كان اسمه غريباً غير شائع " .

ويتوقف الطبيب عن الحكى ... فقد اســـتمع الجميع لأحد عمال النادى يســـتغيث طالباً البحث عن طبيب ؛ لوجود ســـيدة أغمى عليها بعد ســـقوطها وهى تجرى بالمضـــمار ... يســـرع الجميع ... كـان أولهم الطبيب إلى حيث يشـــير العامل ... يجدون ســـيدة بدينة ملقاة أرضـــاً على وجهها ... مغمضـــة العينين ... لا تتحرك .

يسـرع الطبيب بعمل الإسـعافات الأولية .. لكن السـيدة لا تستجيب ... يضع فمه على فمها ؛ ليمنحها قبلة الحياة .. ولا فائدة .. تتكرر المحاولات ... بعدها يهز الطبيب رأســـه حزيناً قائلاً :

ـ " البقاء لله ... البقية فى حياتكم " .

تصرخ سيدة من الواقفات :

ـ يا حبيبتى يا موزة .

ينتبه الطبيب ... يســأل الســيدة ... إن كانت تعرفها ... وهل تعرف اسم والدها ؟ .

تجيبه بثقة :

ـــــ طبعاً إنها حبيبتى ... اســمها موزة الســيريلانكى ... الله يرحمها .

قال الطبيب فى سره :

ـ يا إلهى ! ... إنها هى ... أول من أحببت .

ثم يجهش بالبكاء .

الضجيج المستحب

تمر السنوات سراعاً .. ويبلغ السفير سن التقاعد ... فى رحلة عودته مع زوجته بالطائرة ... يحدثها عن توفيقه فى إتمام رســـالته نحو وطنه ... وحمده لله لأن ولديهما التحقا بوظيفتين مرموقتين ... يعمل الأول مهندســاً بالســعودية ... والآخر يعمل "دبلوماسياً " بنيويورك.

تبادله الحديث ... تحمد الله هى الأخرى ... تحدثه بشوق عن أحفادهما الصــغار ... تُخرج من حقيبة يدها صــورهم ... تبتسم ... آه لو أنهم كانوا أمامها الآن ... لأسرعت باحتضانهم بشدة ... وتقبيلهم ... كما تفعل كلما تلقاهم .
تهمس فى أذن زوجها : " الأولاد وحشونى " .

يســتمر الحوار الودود بينهمــا طوال الرحلــة ... عن مشروعاتهما القريبة ...

كإعادة طلاء الفيلا ... وتزيينها بالتحف النادرة التى اقتنياها ... مع إعداد دولاب زجاجى للأوسمة والنياشين .

يحمدان الله سوياً على أن سكنهما بمنطقة هادئة بالمعادى ... فقد تعودا على السكنى الهادئة بالخارج ... يأملان أن تظل منطقتهما هادئة لا تطولها يد التغيير .

عندما وصلا لسكنهما عصراً ... كانت مفاجأة فى انتظارهما .. تحول القصر الملاصق للفيلا لمدرسة إعدادية خاصة للغات .. وتمت تعليته طابقين آخرين ليستوعب أعداداً كثيرة من التلاميذ ... كما أزيلت الأشجار الجميلة من الحديقة لإعدادها فناء للمدرسة .

* * * *

فى صـــباح اليوم التالى ... يســـتيقظان فزعين .. يتبينان السـبب .. إنها حناجر الصـغار فى المدرسـة ... تهتف أثناء تحية العلم ... يعقب ذلك صـــوت دقات طبلة كبيرة تصـــاحب توجه التلاميذ لفصولهم.

ـ لا ... لا يمكن السكوت على هذا .

قالها السفير منفعلاً ... ثم أكمل :

ـــ إنها منطقة سكنية ... لا يصرح بها بافتتاح أية محلات ... حتى لا تحدث ضجيجاً .

تنبهه زوجته :

ـ لكنها مدرسة .

ـ إنها الضجيج بعينه .

يتحاور الزوجان ... يخططان لما يجب فعله ... تساعدهما دراسـتهما القانونية ... يتبينان أهمية مشـاركة سـكان الفيلات المجاورة للمدرسـة ؛ لإبداء تضررهم أيضـاً من هذا الإزعاج ... يهون السفير الأمر ... فصلته بالجيران ترجع لأيام الطفولة ... يقرر دعوتهم لتناول العشاء ...

ولتكن المناســـبة هى عودتهما النهائية للوطن . وزعت الأدوار فى الحديث بينهما ... هى ســـتؤثر على الزوجات ... أما هو فهو كفيل بأزواجهن .

* * * *

فى الموعد المحدد ... بالقبلات والأحضــان كان اللقاء ... الوجوه كلها باســمة حول المائدة ... كان العشــاء فاخراً أعده أحد الطهـاة المهرة . مـا أن انتهوا من العشـــاء ، وأبـدوا استحسانهم للطعام ، إلا وينتقلون إلى حجرة الجلوس .

يدق جرس التليفون المحمول لزوجة السفير ... تتبين أن محدثها هو ابنها خالد ... يحدثها من نيويورك ... تســـتأذن ممن حولها وتغادر الحجرة لعدة دقائق ... ثم تعود لمقعدها السابق ... وعلى وجهها ابتسامة عريضة وشعور بالرضا .

يفتتح السفير الحديث كما خطط له سابقاً بوصف الأحوال فى البلدان التى عمل بها ... وكيف أنهم يســـتمتعون بالهدوء والجمال . وبطريقة هادئة تمرس عليها يدخل فى الحديث عن الضجيج الذى تحدثه المدرسة .

قال السفير متعجباً :

ــ كيف يصرح بإقامة مدرسة فى هذا المكان الضيق ؟ ... إنه أمر مريب ... فلا يوجد بها ملعب كبير لكرة القدم ... وهو أمر حيوى فالرياضة ضرورة أساسية للنشء .

علق على حديثه أحد الجيران :

ــ صاحب المدرسة عالج هذا الأمر ... بأن جعل الفناء ذاته ملعباً يستوعب خمس لعبات رياضية ... كرة قدم خماسية، وكرة يد ، وكرة سلة ، وكرة طائرة ... وعلى جانب الملعب منضدة تنس طاولة .

ويواصل السفير حديثه :

ــ ما يهمنا هو الضجيج .. إنه لا يطاق .. خاصة فى الصباح الباكر وفى الفسحتين الصغيرة والكبيرة ... صراخهم وزعيقهم المختلط بصوت الميكروفون ... بصفا وانتباه ... والإذاعة المدرسية ... سنصاب بالتلوث السمعى ... وسوف تضعف آذاننا .

يرد عليه أحدهم وهو يبتسم :

ـــ كنا مثلهم ونحن فى سنهم ... بل كنا نحدث ضجيجاً أكثر منهم .

يضيف آخر :

. لعلهم يذكروننا بالحيوية والنشاط اللذين افتقدناهما .

ويتساءل ثالث :

ـــ وماذا بوسعنا أن نفعل ؟ ... مالك الفيلا حر فى ملكه ... يسكن فيها أو يؤجرها مدرسة ... أو ....

هنا يقاطعه السفير مظهراً ثقافته القانونية ... موضحاً أنه من الحق ليس للجار أن يرجع على جاره فى مضار الجوار المألوفة ... لكن له أن يطلب إزالة هذه المضار إذا تجاوزت الحد المألوف ... وينهى حديثه معهم بقوله :

ـــ لقد أعددت شكوى باسم جيران المدرسة ، نبين فيها تضررنا من الضجيج الذى تحدثه فى منطقتنا السكنية ، تمهيداً لرفع دعوى قضائية ... والمطلوب منا التوقيع عليها .

يقدم السفير الشكوى ، والتى كانت مكتوبة ومعدة سلفاً للتوقيع عليها .

ما إن انتهى السفير من حديثه ، حتى انهالت عليه الاعتذارات.

قالت سيادات هانم :

ـ لا .. لا .. أرجوك ياسيادة السفير ... ابنى يعمل حالياً مدرساً بها لقد تخرج منذ ثلاث سنوات بتقدير جيد جداً .. ولم يجد عملاً إلا فى هذه المدرسة .

وتوسلت عنايات هانم بصوتها الرقيق :

ـ أرجو يا سيادة السفير العدول عن هذه الشكوى ... لأن حفيدى فى هذه المدرسة القريبة لنا .. يمكن أن نحدثهم لخفض صوت الميكروفون .

كانت المفاجأة للسفير ... ما قالته زوجته :

ـ وأنا مع رأى عنايات هانم .

فى نهاية اللقاء ... يتم توديع الجيران بالابتسامات ... و ما أن يصير السفير وزوجته بمفردهما ، إلا ويسرع بمعاتبتها :

ـ لِمَ كنتِ صامتة طوال الوقت ؟ ...

بل وتعترضـــين على شـــئ اتفقنا عليه من قبل ... إنه أمر مؤسف .

تبتسـم زوجته فى وجهه ... وتنظر إليه بعينيها الجميلتين ، ثم تقول :

ـ مكالمة خالد هى السبب ... لما علم باجتماعنا بشأن المدرسة ... فرح من وجودها بجوارنا ... اســتأذن فى إقامة شــريف معنا ، حيث يرغب فى إدخاله مدرسة مصرية للغات ... طبعاً رحبت بالفكرة ... سـيحضـر ومعه شـريف الأسـبوع القادم للالتحاق بها .

* * * *

بعد أن دخل شـريف المدرسـة ... أصـبح الجد والجدة ... يتلهفان على موعد الفســحتين الصـــغيرة والكبيرة ؛ ليطلا من الشـــرفة بحثاً عنه وهو يلهو ويجرى مع زملائه ... يلوحان له بأياديهما ... وقد صــارت آذانهما لا يصــل إلى مســامعها من الضجيج إلا ضحكات الصغار ... فينتشيان لضحكهم .

شقة مفروشة على البحر

يلقى رشــوان بنفســه على المقعد المخصــص له بالقطار المتجه للإســكندرية، يتحســـس بيده جيب ســترته.. يطمئن، بداخله أكبر مبلغ يحصل عليه فى حياته من عمولة.. أو مقابل خدمة.. أو رشوة.. سمها أنت كيفما شئت. يقرر بعدها قضاء عدة أيام بتلك المدينة للمتعة والهرب من حر القاهرة.

يميل بجســده ناحية النافذة، يســند رأســه على زجاجها، ثم يغمض عينيه، ليس لجلب النوم، بل لاســتدعاء بعض ذكرياته عن سهراته الحمراء بالإسكندرية.

يمر الوقت عليه سريعاً، فهاهو يصل لمحطة سيدى جابر، يحمل حقيبته الصــغيرة.. يســرع فى اتجاه ســلم النفق المؤدى للخارج... جموع الواصــلين والمســتقبلين تحدث ازدحاماً، تجبر الجميع على المشـــى بخطى بطيئة، أثناء ذلك يهمس فى أذنه أحد السماسرة:

- شقة مفروشة على البحر... إيجارها معقول.

لم يتعود رشوان الإقامة بالشقق المفروشة لارتفاع قيمة الإيجار صيفاً... يفضل عليها الإقامة بأحد الفنادق الرخيصة التى يعرفها، لكنه يجد نفسه فى حوار مع السمسار الذى يعرف منه بأنه قدم للإسكندرية بمفرده... فهو أعزب. يخبره بأنه سيختار له شقة ممتعة... ويسرع بالاتصال من تليفونه المحمول بالست ثريا صاحبة الشقة، يخبرها بأنه فى الطريق إليها ومعه مستأجر مناسب؛ لتستعد باستقبالهما بالشقة.

يستقلان سيارة أجرة... يتوجهان إلى الشقة... يتبين أنها لا تطل على البحر... بل لا تمكن من فيها من رؤيته؛ لأنها فى منزل بشارع جانبى... يعاتب رشوان السمسار الذى يجيبه بابتسامة باهتة:

- لكن.. لها شرفة كبيرة.. يصلها هواء البحر من كل اتجاه.

يصعدان إلى الشقة بالطابق الثالث..تفتح لهما الست ثريا.. بدينة.. دميمة الوجه.. فى العقد الخامس.. يقرر رشوان فى نفسه بأنه سيعتذر عن استئجار الشقة..

لكن سرعان ما يغير رأيه فور دخوله ورؤيته لسيدة شابة رائعة الجمال... مواصفات جمالها من النوع الذى يشتهيه... بيضاء البشــرة... خضــراء العينين.. تترك شــعرها الكســتنائى الناعم ينســـــاب على كتفيها متمايلاً يميناً ويســـــاراً عند تحركها... فستانها الحريرى الأخضر ذو الصدر المفتوح يزيدها جمالاً... ويلائم لون عينيها.. على شـــــفتيها ابتســـــامة رقيقة تدعو للقبلات.. يتركهم رشوان يتحدثون عن مزايا الشقة بأن الشمس تدخلها وأنها تحتوى على كل مايحتاجه الســـــاكن. أما هو فقد شُغِلَ عنهم بتخيلاته مع تلك الحسناء.

تنادى عليها صاحبة الشقة:

ـ يا جمالات.. اسألى الأستاذ يشرب السخن أو البارد.

تتمايل جمالات فى خطوها وهى تقبل ناحيته:

ـــــ حاضـر يا ماما.. باين عليه عطشـان قوى.. تحب تشـرب الكولا؟

ـ شكراً.. أى شئ منك حلو.

يلحظ رشـــوان أن جمالات فى حديثها معه.. قد غمزت له بعينها اليمنى.. هذه الغمزة لها معنى.. فرشوان صاحب تجارب وخبرة مع النساء.

تخبره الست ثريا أن التأمين يعادل أجرة شـهر، ثم تسـأله عن المدة التى سيستأجرها:

ـ ثلاثة أيام يا حاجة... الإجازة أخذتها بصعوبة.

ـ للأسف يا أستاذ.. أقل مدة إيجار عندنا.. أسبوع.

يوافق رشـوان على دفع التأمين وأجرة الأسـبوع كاملاً رغم بقائه بالشقة ثلاثة أيام فقط.

أبدى رشوان موافقته وهو لم يبعد نظره ـ ولو للحظة واحدة ـ عن جمالات أثناء إحضـارها زجاجتى المياه الغازية لـه وللسمسار.

قالت الست ثريا:

ـــ احتياجاتك كلها سـنقضـيها لك؛ لأن البواب سـافر للعزاء بالصعيد... كلنا فى الدور الرابع... فوق " أشـارت بإصبعها إلى أعلى".

كل هذا لا يهم رشــوان... الذى يهمه أن تقضـــى جمالات حاجته.

يقرأ السـمسـار عليهم ما هو مكتوب بالعقد بصـوت مرتفع وخاصـة محتويات الشـقة.. جميع الأشـياء وصـفت بأنـها بحالـة جيدة وسـليمة، والمسـتأجر عاينها معاينة نافية للجهالة... لم تكن حواس رشوان وقتها مع السمسار.. كل حواسه كانت مركزة على جمالات التى تجلس قبالتـه تماماً واضـــعة ســـاقاً فوق الأخرى... وفســـتانها الحريرى القصـــير يبرز مفاتنها... بعد انتهاء السـمسـار من القراءة يخرج رشـوان بطاقته من الحافظة ويوقع بإمضائه.

يفعل ذلك وهو ينظر إلى جمالات التى تتشـــدق باللبان... تعمد رشـــوان وهو يدفع الإيجار والتأمين أن يخرج كل ما معه من نقود ويضعها على المنضدة أمامه؛ لتراها جمالات.

يمسك رشوان بورقة فئة الخمسين جنيهاً ويقدمها للسمسار الذى يرفضها هامساً فى أذنه بصوت خفيض:

ـ لا أقل من مائة... سيادتك ستتمتع آخر متعة فى الشقة.

يعطيه رشوان مايطلبه، وتفعل الحاجة ثريا مثله،

وينصرف.

فى نهاية اللقاء تسلم الحاجة ثريا مفتاح الشقة لرشوان، قائلة له:

ـــــ لا تحمل هماً.. أولادى كلهم تحت أمرك.. الساعة ٨ فى المساء والصبح.. سيكون أحدهم عندك لقضاء طلباتك؛ لسفر البواب.

تهمان بالوقوف للانصراف.. تصافحانه.. عندما صافحته جمالات مودعة ضغط على يدها بقوة... مما جعلها ترن ضحكة عالية، معاودة الغمز له بعينها.

يسرع رشوان بشراء بعض احتياجاته وعدد من زجاجات البيرة... يضعها بالثلاجة.. يكتشف أن مقبض يدها مكسور، والصدأ يظهر واضحاً بداخلها. يتناول بعض الأطعمة والفاكهة يستلقى على السرير ليستريح قليلاً. يكتشف أن المراتب والمخدات لم يتم تنجيد قطنها منذ سنوات بعيدة... أصبحت متحجرة... لها رائحة عطنة.

بعد فترة قصـــيرة... ينهض تاركاً الســـرير... يســـتحم... يتعطر... يعطر الســرير... ينظر إلى ســاعته... كم يتمنى أن يدق جرس الباب... يفكر فى الحوار الذى ســـيدور بينه وبين جمــالات... يســـتعيد بعض عبــاراتهــا... وغمزات عينـهــا... يتذكر ما قاله السمسار له.."ستتمتع آخر متعة فى الشقة".

فى الثامنة يدق جرس الباب.. "إحساســى لا يخيب... هى بالتأكيد جمالات".. يفتح الباب بلهفة.. يجد شاباً رياضياً مفتول العضلات:

- مساء الخير.. أنا ابن الست ثريا.. تريد شراء أى شئ؟

- شكراً.. اشتريت كل ما يلزمنى.

يوصد الباب خلفه، يشعر بضيق... لكنه لم يفقد الأمل... يحدث نفســـه.. "لاحظت اندهاشـــها واتســـاع عينيها حين رأت الفلوس الكثيرة معى"... يجلس على كرســـى... يتبين أن لـه رجلاً قصـيرة.. يشـعر بعدم الراحة.. يسـتبدله بآخر.. يحتسـى البيرة ببطء مع تنــاول بعض حبـات الزيتون وشـــرائح الجبن الرومى... يســـمع رنين الجرس مرة أخرى "لابد أنها هى هذه المرة" ...

يســـرع إلى فتح الباب، يجد أمامه رجلاً يرتدى جلباباً وطاقية.. أســـمر اللون.. له شـــارب كثيف.. يعلم منه أنه عم حســـيب البواب، العائد تواً من الصـــعيد بعد دفن عمه، يســـأله إن كان يحتاج لشئ... يجيبه رشوان:

ـــ أولاً البقية فى حياتك.. كل شئ موجود هنا والحمد لله.. لكن قل لى.. أنت من أى بلد فى الصعيد؟

. من طهطا.

. وأنا من طما.. جيران.. يعنى بلديات.. اتفضل خش.

يهدف رشـــوان من دعوته للدخول؛ للاســـتعلام منه عن جمالات... لكنه يخجل أن يســألـه عنها مباشـرة... كان قد أعد المـائـدة، وعليهـا زجـاجـات البيرة وكوبـان كبيران؛ لتنـادمـه هى الشرب معه... لكنه الحظ السئ الذى يجعله يتنادم الشراب مع عم حسـيب... يتواصـل حديثهما عن الشـقة؛ تمهيداً للسـؤال عنها.

يسأله حسيب:

ــ لا تؤاخذنى يا بك... من أجر لك الشقة هو سمسار ضلالى، كان عليه مصارحتك... فالشقة لا تصلح للسكن... فالغسالة الكهرباء عطلانة... وشباك المطبخ زجاجه مكسور... يدخل منه الفئران.

تبدو على وجه رشوان علامات الانزعاج... يسأله:

ـ فئران؟

يجيبه حسيب بلا اكتراث:

ــــ نعم... فئران... لا تخف يا بك... عندى مصيدة... المهم تحترس وأنت تولع البوتاجاز... منظم الغاز فيه عيب... والصراصير كثيرة لعدم نظافة الشقة... حاول استرداد فلوسك وأنا عندى لك شقة مفروشة... نظيفة وجميلة ورخيصة.

ـ لا داعى يا عم حسيب كلها ثلاثة أيام نقضيها بأى شكل.

ـ و دفعت تأمين؟

ـ طبعاً... وسأسترده لما أمشى.

ـــ ربما... لكن من سكنوا هنا قبلك حاولوا استرداده.. وفشلوا؛ لأن الست ثريا تثبت بالعقد بأن أجهزتها سليمة؛ بقصد عدم رد التأمين... والشرطة تقف دائماً بجوارها.

. والسبب؟

ـــ لأن السكان وقعوا على العقد بأن كل ما بالشقة بحالة جيدة وسليمة... وسيادتك تعرف القراءة والكتابة يا رشوان بك.

يقرأ رشـــوان العقد بعناية... يتوقف أمام عبارة "وجميع الأشياء بحالة جيدة وسليمة... وأن المستأجر عاين كل الأشياء معاينة نافية للجهالة". يصيح قائلاً:

. صاحبة الشقة وبنتها تعرفان بأننى لم أعاين شيئاً... دع بنتها لتحضر هنا لأتفاهم معها.

ـــ يا ولد العم... الست ثريا ليس لها بنات... عندها أربع أولاد ذكور، ويحبون العراك والمشاجرات.

. غير صحيح... لها ابنة اسمها جمالات... قالت لها ياماما.

ــــــ ما أنا قلت لك يا ولد العم... تبقى إنت ابن عمى؟.. إنت تقصد الست جمالات؟.. لون عينيها أخضر؟

. بالضبط هى.

ـــ مسكينة الست جمالات... مرضت بشلل فى نصف وجهها.. ولما شفيت.. أصبحت عينها اليمين تغمز لوحدها كل فترة.

ليلة النطق بالحكم

ينتهى من دراسة القضية فى ساعة متأخرة من الليل ، يغلق ملفها يطفئ بعدها نور غرفة مكتبه ، متجهاً إلى حجرة نومه ، يستلقى على السرير بهدوء حتى لا يوقظ زوجته ، لا تزال عيناه مفتوحتين وفكره متقداً فهو لم يتخذ قراره بعد بالنسبة للمتهم .

الأمر ليس جديداً بالنسبة له منذ أصبح قاضياً يصدر الأحكام ، حالة السهاد هذه كثيراً ما تنتابه عند دراسة بعض القضايا للحكم فيها ، لاسيما القضايا التى تتساوى فيها الأدلة بكفتى الميزان ، كفة الإدانة مع كفة البراءة .

تقلقه مسألة البحث عن العدالة لدقتها المتناهية ، وهو فى ذلك كالصائغ الذى يمسك بميزان الذهب الحساس ، فصدور الحكم بالإدانة حتى لو كانت التهمة ثابتة مسألة ليست سهلة ، لأن العقوبة كثيراً ماتتأرجح بين التشديد والتخفيف وفقاً لظروف وملابسات القضية.

حتى حكم البراءة الذى يتأهب لإصداره وفقاً لقاعدة أن الشك يؤول لصالح المتهم ، كثيراً ما يقلق ليلتها إذا ما تعادل الشك مع اليقين .

يتقلب فى فراشه كثيراً كعادته عندما يكون قلقاً ، تشعر به زوجته ، تسأله وهى نصف نائمة عن سر قلقه .. يجيبها باقتضاب :

- غير مرتاح .

تعقب والنعاس يغالبها :

- فعلاً المراتب أصبحت غير مريحة ... تحتاج تنجيد .

ثم تغط فى نومها ، يبتسم زوجها ابتسامة خفيفة ، يعاود بعدها التفكير فى القضية التى سيحكم فيها فى الصباح .

يسترجع فى ذاكرته كل الوقائع المدونة واقعة وراء أخرى ، وكلمات ممثل الإدعاء ، مرافعات الدفاع ، التحقيقات حيث يعترف المتهم تفصيلياً بجريمة عرض الرشوة على موظف عام .

يقفز لمخيلته صورة ممثل الإدعاء بوسامته ، ورباط عنقه الأزرق ، مشيراً بإصبعه للمتهم وهو يقول :

. " لا تأخذكم بهذا المتهم شفقة ولا رحمة ، إنه وأمثاله يفسدون الذمم ، بعرضهم الرشاوى بقصد إنجاز أعمالهم ، أضربوهم بيد من حديد .. الرشوة إن دبت فى أجهزة الدولة كانت الداء الذى يهز كيان المجتمع ويهدد الوطن بأسوأ العواقب .. إنى أطالب بأقصى عقوبة لجريمة عرض الرشوة لموظف عام ؛ ليكون ذلك عظة وعبرة له ولأمثاله .. حماية للموظف والوظيفة من إغراء ذوى الحاجات " .

رغم أن ما قاله ممثل الإدعاء يعرفه جيداً ، بل يحفظه عن ظهر قلب وقال مثله مرات عديدة عندما كان عضواً بالنيابة ، إلا أن تلك الكلمات حين استعادها الآن فى ذاكرته ، عبرت بصدق عما يشعر به من أخطار لتفشى جرائم الرشوة، يستعيد كلمات ممثل الإدعاء مرة أخرى ، وموافقاً على ضرورة تشديد العقاب .

تهدأ نفسه للقرار الذى اهتدى إليه ، وهو الحكم على المتهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، حيث يستوجب تشديد العقاب عليه لكونه من موظفى الدولة ، يرتاح نفسياً لشعوره بأن هذا الحكم سيحقق العدالة ويقضى على الفساد .

ما كاد يستعد للنوم ، إلا ومحامى المتهم بروبه الأسود ، يقتحم فكره وكأنه يشعر بما ينتويه فى الصباح من إدانته لموكله ، فيسرع محتلاً ذاكرته ، عارضاً عليه دفاعه طالباً البراءة للمتهم .

الحقيقة أن المحامى لم يقتحم فكر القاضى ، بل هو الذى استدعاه دون وعى منه ، ففكره القضائى جعله لايهنأ له بال إلا بعد استعراض جميع حجج وأسانيد كلا الطرفين .. الإدعاء والدفاع حتى يطمئن لسلامة الحكم.

يتقد فكره ثانية ، مستعيداً ما جاء بمرافعة الدفاع الشفهية والمكتوبة لم يهتم بالآراء القانونية التى استند إليها فى دفاعه لآراء الفقهاء القدامى مثل جارسون وجارو وعلى راشد والقللى .. فهو يعيها تماماً .

لكن الذى أثار اهتمامه ، وشغل فكره فى تلك اللحظة ، ما عرضه الدفاع عن الجانب الإنسانى للمتهم ، فهو موظف رقيق الحال ورث واخوته عن أبيهم منزلاً قديماً من أربعة طوابق يسكنون فيه ، ولم يكتشف المتهم أن الزمن مر به سريعاً ، إلا عندما كبر أولاده الذكور ، وأبدوا رغبتهم فى الزواج ، لكن العائق المادى حال دون تحقيق رغباتهم ، فهم ليس لديهم المال لشراء شقق سكنية تصلح للزواج بها .

مع حركة العمران التى هبت بالمدينة بإقامة مئات الأبراج السكنية بدلاً من الفلل التى تهدمت رغم أنف القانون .. وكذا آلاف المساكن القديمة التى ارتفعت فيها الأدوار عدة طوابق أخرى .. تأتى للمتهم فكرة تعلية منزله هو الآخر عدة طوابق لإعدادها شققاً لأولاده.

يتردد على الحى لاستخراج الرخصة اللازمة للتعلية .. يتوه بين المكاتب .. فى مكتب المهندس المختص بإصدار الرخص كان ما كان ، حيث صاح ذلك المهندس بأعلى صوته صارخاً :

- " لست منهم .. تريد رشوتى ؟ اشهدوا يا خلق هذا الأفندى يريد رشوتى بهذه الاسورة الذهبية ".

يستمر القاضى فى استرجاع مرافعة الدفاع فى مخيلته ، ويتذكر كلمته التى وجهها لهيئة المحكمة ، قائلاً :

- " ياحضرات المستشارين .. لقد أخطأ موكلى بذهابه لهذا المهندس بمكتبه دون وسيط يعرفه ويطمئن إليه .. إن المعلومات المسجلة التى حصلت عليها عن هذا المهندس تفيد بأنه سبق اتهامه فى قضية استغلال نفوذ ، وأخرى بطلبه رشوة.. لكن التهمتين حفظتا لعدم كفاية الأدلة ضده؛ نظراً لحرصه الشديد " .

تتمثل صورة المحامى جلية فى مخيلة القاضى عندما ينهى مرافعته مستعطفاً المحكمة بقوله :

- " .. عندما عمت المجاعة فى عام الرمادة ، أوقف الخليفة العادل عمر بن الخطاب عقوبة قطع يد السارق بالسيف فى ذلك العام . وفى زماننا هذا حيث عم الفساد فى الكثير من الأجهزة الإدارية ، حتى أصبح من العسير قضاء أية مصلحة لمواطن دون وساطة أو دون عرض رشوة .. إن موكلى يا حضرات المستشارين ضحية لفساد هذا الزمن " .

هذه الكلمات الأخيرة للمحامى ، مست شغاف قلب القاضى وهو يسترجعها هذه المرة ، بعدها بقليل يغمض عينيه مستسلماً للنوم .

....

....

فى الصباح تصدر هيئة المحكمة حكمها المخفف على المتهم بأدنى عقوبة مع إيقاف التنفيذ .

٤ مقاعد لكبار السن

يصل ترام النصر إلى نهايته بمحطة الرمل... تفتح أبوابه من جانبيه ... يتدافع الواقفون بالمحطة إلى عرباته الثلاث .. لم يمهلوا الركاب بداخله كى تنزل أولاً ... الكل يتسابق ليغتنم بمقعد ... ينحشر بعضهم بالأبواب ... تصرخ سيدة بدينة فى وجوه من حولها ... تبعدهم عن ولدها الصغير الذى تمسكه من يده ... تنجح فى الوصول إلى بعض المقاعد الخالية ... تلقى بجسدها المتعب على أحدها ، وتجلس ابنها الصغير بجوارها .. يتمكن شابان آخران من الجلوس فى مواجهتهما.

فى أقل من دقيقة تُشغل المقاعد جميعها ... تزدحم العربة بالواقفين ... دقائق أخرى ينتظرها الترام قبل أن يبدأ جولة أخرى .

تخرج السيدة من حقيبة يدها مروحة تهوى بها على وجهها .. فالجو شديد الحرارة يخنق الأنفاس ... والرطوبة عالية.. تسأل الشاب الذى يجلس أمامها :

- هل يقف الترام بمحطة رشدى أم لا ...؟

يرتبك الشاب ... ينظر إلى زميله ... يجيبها :

ـ آسف .. لا أعرف.. أنا وهو من مصر الجديدة .

ترد عليه بابتسامة صغيرة :

ـ أنا أيضاً .

يتطوع أحد الاسكندرانية من الواقفين بجوارهم بالإجابة وقد استمع لحديثهم :

ـ ترام باكوس أو ترام النصر يقفان على محطة رشدى .

تشكره السيدة مبتسمة .

يصعد إلى العربة رجل مسن ... يتجه مباشرة إلى المقاعد التى تجلس بها السيدة البدينة ... يطلب أن يجلس بدلاً من ابنها ...

تحاوره قائلة :

ـ سأقطع له تذكرة ... ومن حقه أن يجلس ... لقد جلس قبلك .

ـ هذه المقاعد مخصصة لكبار السن .

ـ ومن خصصها ؟

يبتسم المسن مشيراً بإصبعه إلى عبارة مكتوبة بخط باهت فوق النافذة " ٤ مقاعد لكبار السن " ... تقرأ السيدة العبارة ... تبدو على وجهها علامات التعجب ... تطلب من ابنها الوقوف .

- قم لعمك ياحمادة .. اتفضل اقعد ... سيادتك مثل والدى .

بعد فترة صمت قصيرة ... تكمل السيدة حوارها مع المسن ...

- أنا محامية ... وهذه التعليمات غير قانونية .
- عندما كنا صغاراً ... ونجلس فى المواصلات ... إذا أقبلت علينا سيدة أو من هم أكبر منا ... كنا نقف لنجلسهم.. ولم تكن هذه العبارات مكتوبة .

يبدأ الترام رحلته ... ويستمر الحوار بينهما ... تعقب السيدة على أقوال المسن :

- شئ جميل ... أخلاقى ... لكن الإلزام غير قانونى .

يستفسر منها عن السبب ... تجيبه :

. عندما يكون الأمر قانونياً ، أو تعليمات ملزمة ... يجب أن تكون قواعده محددة ... وهو ما نفتقده فى تلك العبارة .

يطلب منها إيضاحاً أكثر ...

. ماذا لو كانوا خمسة مثلاً ، من يجلس منهم فى المقاعد الأربعة ؟

. هذا شأنهم ... والأولوية للأكبر سناً بالطبع .

. قد يكون الأقل عمراً هو الأحوج للجلوس .

يتدخل فى الحوار معهما الشابان ... قال أولهما ، وهو الجالس فى مواجهة المسن :

. ياعمى ... الحقيقة أن جيلكم أخذ أكثر من حقه ... كان الشاب منكم بعد تخرجه من الجامعة مباشرة يتم تعيينه فى الحكومة ، أو شركات القطاع العام ... وفى نهاية رحلته الوظيفية يصبح وكيل وزارة أو مديراً عاماً ...وله معاش كبير فى التأمينات .

يضيف زميله الجالس بجواره :

ـ تخرجنا من ست سنوات ... ولم نجد عملاً حتى الآن ... قَدِمنا للإسكندرية ؛ لنقدم أوراقنا لإحدى الشركات التى أعلنت عن ذلك ... وطبعاً ستقابلنا عقبة الواسطة .

ارتسمت على شفتى المسن ابتسامة ساخرة ... وقال :

ـ أخذنا أكثر من حقنا ؟! .. لقد كنا نعيش فى حروب دائمة ... نخرج من حرب لنستعد لأخرى .

ـ ونحن أيضاً نعيش الحرب والدمار كل يوم فى التليفزيون .

ـ جيلنا كان يحصل على حاجياته من الجمعيات التعاونية بصعوبة ، الآن محلات " السوبر ماركت " منتشرة وبها جميع السلع والأشياء الترفيهية ويسهل الحصول عليها .

ـ للقادرين فقط يا عمى ... نحن شباب عاطل .

" تذاكر يا حضرات " ... يعطى المسن عشرة قروش من الورق للمحصل الذى يسلمه تذكرة ، بعدها يقدم أحد الشابين للمحصل قطعة معدنية فئة العشرين قرشاً له ثمناً لتذكرتين .

يتعجب المحصل ... يقول للشاب متبرماً :

- التذكرة ياحضرة بخمسة وعشرين قرشاً ... الأستاذ دفع عشرة قروش فقط لأنه معاش .
- معذرة ... لم أكن أعرف ثمن التذكرة .

يصمت الشابان عن الحديث بعدها .

بإحدى المحطات ... يتوقف الترام لحظات ... ينزل عدد قليل من الركاب ، ويصعد آخرون أكثر عدداً من مختلف أعمارهم ... يواصل بعدها الترام سيره .

يتوجه بعض كبار السن ممن ركبوا إلى المكان المخصص لهم بالعربة ... يطلب مسنان من الشابين ترك مقعديهما ... يمتثل الشابان على الفور ... يطلب مسن آخر ملتح من السيدة البدينة ترك مقعدها ... ترفض صارخة :

- التعليمات هذه غير قانونية ... أنا متعبة أكثر منك .

يصيح الملتحى بدوره فى وجهها :

- مكانك ليس هنا ... مخصص للحريم العربة الوسطى بكاملها ... عربة السيدات .
- لسنا فى عصر الحريم ... أنا فى العربة مع ابنى ... هل أتركه هنا وأركب مع السيدات ؟

ينقذ الموقف أحد الشباب الجالس بالقرب منهم ... يدعو الملتحى للجلوس مكانه ... فيلبى طلبه ... وتخفت الأصوات تدريجياً .

يضيق صدر السيدة البدينة ... تسأل المسن الجالس بجوارها :

.كم محطة باقية على رشدى ؟

يعد المسن على أصابعه ذاكراً أسماء المحطات بصوت مرتفع :

. الجامعة .. المعسكر .. الإبراهيمية .. الرياضة الصغرى .. الرياضة .. كليوباترا ...

يتدخل المسن الجالس فى مواجهة السائلة ويحدثها بقوله:

. لا تقلقى يا بنتى ... أنا و زميلى راكبان حتى المحطة الأخيرة ... وسأخبرك عندما نصل لمحطة رشدى .

تشكره ... بينما المسن الجالس بجوارها ينتهى من عد المحطات الباقية ، قائلاً :

. تسع محطات باقية على محطة رشدى ... وأنا سأدلك عليها أيضاً ... فأنا سأنزل فى آخر الخط .

ثم يهمس لها قائلاً مطيباً خاطرها :

ـ لا تغضبى يا أستاذة ... المرة القادمة احرصى على أن تجلسى بعيداً عن مقاعد الكبار .

يصل الترام لمحطة الإبراهيمية ... يطول وقوفه ... يتهامس الركاب فيما بينهم ... " إشارة مرور؟ " ... " لا .. ليست إشارة " .. يستفسر بعضهم من المحصل الذى كان قد نزل من العربة ثم عاد إليها .. أجابهم بثقة :

ـ سيارة نصف نقل ... محملة بعلب مسلى ... كانت قادمة من سوق شيديا متجهة لشارع بورسعيد ... أثناء مرورها فوق قضبان الترام .. تعطل محركها فجأة .. السائق يحاول تشغيله ..

صاح أحد الركاب معقباً :

ـ ستتعطل مصالحنا .

أجاب المحصل على الفور :

ـ مطلوب دفع السيارة للأمام ... إنها معطلة فوق القضبان .. نحن فى حاجة لسواعد الشباب .

ينظر المحصل بعدها إلى الشابين القادمين من مصر الجديدة .. وإلى شاب آخر يقف بجوارهما . قال لهم مبتسماً:

. الهمة يا شباب ؟

اتجهت أنظار الركاب إليهم ... غادر الشباب على إثرها عربة الترام الواقفة ... لكن المفاجأة أنهم لم يتوجهوا إلى السيارة المعطلة ... بل ابتعدوا بعيداً بعيداً عن الترام الذى ظل فى مكانه واقفاً فى انتظار إزالة العائق الذى أمامه .

شكوى للرئيس

دقائق قليلة ويمر قطار الرئيس .. سيغادر محطة السويس فى تمام العاشرة صباحاً إلى القاهرة .. جماهير السويس تصطف لتودعه منذ فترة بالمحطة وبالطريق الموازى للسكة الحديد .. خطب الرئيس فيهم بالأمس فألهب حماسهم .. هتفت الجماهير بحياته .

يقف ضابط شرطة صغير فى حالة قلق شديد ؛ للحفاظ على الأمن بمنطقته بالطريق .. تتزايد الجماهير بسرعة ، ويصعب عليه السيطرة عليهم ؛ لعدم وجود سور يفصل بينهم وبين القطار .. يتفحص الضابط الوجوه المتراصة .. يتذكر تعليمات مدير الأمن المشددة :

" الرئيس مستهدف للاغتيال .. يجب الحرص وخاصة بالطريق خارج المحطة أثناء مرور القطار ببطء .. عند تحية الجماهير له وهو بعربة القطار المكشوفة ".

يشـتبه الضـابط فى أحد العمال الواقفين .. حين نظر إليه ارتبك العامل الذى كان يحمل حقيبة من القماش .. وضـع الضابط يده على مسدسه استعداداً .. أمره بوضع الحقيبة على الأرض وإفراغ مابها .. خضـروات وطماطم .. ابتسـم الواقفون بجوار العامل .. يبتعد الضـابط ويسـتمر فى تفرس الوجوه .. يتذكر ما قاله مدير الأمن لهم محذراً :

" الرئيس طلب سـحب العصـى من الجنود .. قال أنه يؤلمه منظر الجنود وهم يرهبون أو يضـربون الناس بها .. أنا بدورى أحذركم .. سينزل الجنود لأول مرة الخدمة بدون عصى .. ولو ضُبِطَ أحدهم يحمل عصا .. سيحاكم ضابطه عسكرياً ".

يسرع الضابط بتفقد جنوده ؛ للتأكد من عدم حملهم لعصى .. يكتشـف أن أحدهم خالف التعليمات ، وأمسـك بفرع صـغير لشجرة .. عندما نهره الضـابط وأمره بإلقائها بعيداً .. رد المجند فى عفوية :

. أنا بأهش بها الناس .

يمر القطار الكشــاف الذى يســبق قطار الرئيس ؛ لتأمينه .. بعد دقائق .. تتعالى أصــوات الهتافات .. أمواج من البشــر تتدافع ناحية القضــبان ؛ لرؤية الرئيس عن قرب ، لم يســتطع الضـــــباط والجنود من منعهم .. يهل القطار ببطء .. الرئيس بعربته المكشــوفة محاط بعدد من ضــباط الحرس .. يلوح بيديه للجماهير وهو يبتســم .. تتعالى الهتافات .. الضــابط الصــغير يبهره المنظر .. كل اهتمامه حالياً رؤية الرئيس .. تتزايد سرعة القطار تدريجياً .. فجأة يتكهرب الجو .. الرئيس يتجهم وجهه .. ويشير بيده ناحية الجمهور ..

حرس الرئيس يشيرون للضابط الصغير ناحية ما يشير إليه الرئيس .. يكتشــف الضــابط أن أحد المســنين يمســك بورقة بيضاء يرفعها لأعلى .. يصرخ أحد ضباط الحرس فى الضابط الصغير ..

ـ بسرعة .. أحضر الشكوى .

ينفذ الضـــابط الأمر..يمســـك بالشـــكوى..يجرى فى محازاة القطار.. يســرع القطار.. فيســرع الضــابط بالشــكوى ليســلمها لضـــــباط الحرس .. يختلس النظر إلى الرئيس .. يجده مركزاً بصـــره نحوه .. يخشــــى الضــــابط أن تتعثر قدماه فى الزلط والفلنكات الخشـــــبية .. لكنـه يزيد من جريه.. أخيراً ينجح فى تســـليم الشـــكوى..ينظر إلى الرئيس ، يجده يومئ برأســــه لـه مبتسماً ... ثم يعاود تلويحه بيده للجمـاهير ، التى تهتف ... " ناصر .. ناصر .." .

ابن ليل

ويخرج الزائرون من مكتب ضـابط المباحث الجديد... حيث يتوافدون عليه؛ للترحيب به ـ كعادتهم بصعيد مصر ـ وليهنئوه بتولى منصــبه، غالبيتهم من عمد ومشــايخ البلاد، ومن بينهم أيضــاً بعض الأهالى الذين يرغبون فى توثيق صــلتهم بضــباط المركز.

يســـترعى انتباه ضـــابط المباحث أثناء الزيارة... عمامة ناصـعة البياض لأحدهم لضـخامتها وارتفاعها، يلفها صـاحبها بإحكام على رأســه، فتجعله مهاب الطلعة، خاصــة أنه ضــخم الجثة ويرتدى عباءة فخمة على جلبابه.

يســـتدعى الضـــابط أقدم المخبرين؛ ليدلى بمعلوماته عن صاحب تلك العمامة... يجيبه:

ـــ إنه الشيخ فهمى الدهشان... رجل له نفوذ كبير... مسموع الكلمة فى منطقته... أقصـــد قريته والقرى المجاورة له... نحن فى المركز نحتاج إليه... نعم يا بك... فهو أحياناً يسلمنا المتهمين والمحكوم عليهم الهاربين... دون مشقة.. يعتقدون أننا لن نسئ معاملتهم مادام الشيخ الدهشان هو الذى يتوسط ويسلمهم لنا... وأحياناً كثيرة يساعدنا فى كشف الكثير من القضايا الغامضة.

. والعمد والمشايخ... ما فائدتهم إذن؟

ـــ لا يقدرون أن يفعلوا مثله... يخافون.. أما هو فقلبه ميت.. جرئ.. كان ابن ليل فى شبابه...

. وما مصلحته هو فى تقديم خدماته؟

ـــ نفوذه يزداد بين أهله وناسه؛ لعلمهم بأنه قريب من رجال السلطة... فيقضى كل حوائجه بسهولة... يلجأ إليه المرشحون فى الانتخابات؛ لينالوا رضاه للحصول على أصوات الأهالى.

تبدو على وجه ضـــابط المباحث علامات الضـــيق وعدم الارتياح، فهو يفضـــل أن يتعامل مع رجال الإدارة بالقرى إذا ما احتاج إلى شئ بها... يلحظ المخبر ذلك... فيكمل حديثه:

ـــــ طبيعة عملنا يا بك تحتم علينا التعامل مع كل النوعيات لقضاء مصالحنا.

لم يمض وقت طويل، إلا ويقع حادث خطير فى منطقة الشيخ الدهشان، لتعدى بعض الأهالى على أحد رؤساء النقط وجنوده، أثناء تنفيذهم لحكم بتســـليم أرض زراعية، ينتج عن هذا التعدى أن يصاب الضابط بإصابة بليغة ويفقد مسدسه.

على الفور تعيد الشـــرطة الســـيطرة الأمنية على القرية... يُضْبَط المتهمون بالتعدى، ويُحقق معهم، لكن المسدس الأميرى يظل مفقوداً.

لم يشأ ضابط المباحث أن يلجأ لصاحب العمامة كنصيحة بعض المخبرين، رغم أن اعتماده على العمد ومشـــايخ البلد والخفراء باء بالفشل

فلم يجرؤ مواطن من القرية أن يبوح ولو سـراً عن اسـم من استولى على المسدس أو يرشد عن مكان إخفائه، فالواقعة خطيرة وإصابة الضابط بليغة.

تقوم قائمة الوزارة، وتستعجل ضبط المسدس، فالاستيلاء على مسدس أميرى، والاعتداء على ضابط... هو خط أحمر لا تتهاون الحكومة معه، ويتقرر سفر بعض قيادات الوزارة لموقع الحادث.

يكتشف الضابط أن بعض هؤلاء القادة يعرفون صاحب العمامة، وسبق تعاملهم معه، عندما كانوا ضباطاً صغاراً، ويعتبون على الضابط عدم الاستعانة به. ويطلبون منه إحضاره إليهم، حيث يجلسون بالحجرة الفسيحة المخصصة لرئيس النقطة طريح الفراش بالمستشفى.

يتوجه ضابط المباحث إلى الشيخ الدهشان فى مسكنه... هى المرة الأولى التى يزوره فيها..

يخبره بأن قيادات الوزارة تستدعيه؛ ليساهم معها فى البحث عن المسدس. يستمهله الرجل دقائق؛ ليرتدى ما يناسب مقابلة تلك القيادات وليستبدل الطاقية بالعمامة... بعدها أسرعا عائدين بسيارة الشرطة لمقر النقطة، حيث يجتمع القادة.

يُقَابَل الشيخ الدهشان بترحاب شديد... بعضهم يستعيد ذكريات قديمة معه... الكل يعاتبه لعدم تقديم العون فى البحث عن المسدس، رغم وقوع الحادث بمنطقته... يجيبهم بهدوء:

- لم يكلفنى أحد حتى الآن.

ثم يستطرد فى قوله:

ــــ تكريماً لتشريفكم فى بلادنا... وتكريماً لضابط المباحث الجديد... سأبذل جهدى لأقدم إليكم المسدس صباح الغد.

يعقب أحد القادة، وهو أقدمهم بقوله:

- إن كنت تريد إكرامنا حقيقة... نستلم المسدس اليوم... وليس باكراً... فالوزير شخصياً يتابع الحادث.

يبتسم صاحب العمامة الكبيرة قائلاً :

. لكن بشرط.

ردوا عليه جميعاً:

. ما هو؟

ـ أريد أن اطمئن أولاً... بألا يؤذينى أحد بعد تسليم المسدس أو يسألنى أين وجدته أو مع من كان؟... خاصة حضرة ضابط المباحث الجديد، فلم يسبق لى التعامل مع سيادته من قبل.

يجيبه أقدمهم بصوت واثق:

ـــ اطمئن.. لن يؤذيك ضابط المباحث.. أو أى ضابط آخر... نحن نقدر دورك ونتفهمه.

ينظر الضابط الأقدم بعدها إلى ضابط المباحث، طالباً منه أن يطمئن الشيخ الدهشان، فيندفع الضابط موجهاً حديثه له:

. أقسم بالله العظيم.. لن أؤذيك.. ولن أسألك عن الشخص الذى كان معه المسدس.. هل هذا يكفى؟

ـــ يكفى... يكفى... وأمام هذا القسم... ووعدكم لى... فإنى سأسلم لكم المسدس بعد نصف ساعة كما أمر سعادة الباشا.

ويستأذن الرجل ذو العمامة للانصراف، طالباً من ضابط المباحث مرافقته، يخرجان سوياً... يمشيان بضع خطوات فى الممر.. ثم يتوقف الشيخ الدهشان طالباً من الضابط الجلوس سوياً بعض الوقت فى الفناء أمام النقطة؛ لأنه فى حاجة إلى شرب كوب من الشاى. يطيعه الضابط... ويأمر بإحضار شاياً لهما... يحتسيانه وهما يدخنان السجاير بمفردهما... يمر الوقت ويكاد يقترب من النصف ساعة... تبدو علامات القلق على وجه الضابط... ينظر إلى ساعته عدة مرات... يبتسم الرجل ذو العمامة وهو يوجه حديثه للضابط:

. لا تقلق... سيكون هذا بداية لتعاوننا.

ويستمر الشيخ الدهشان فى احتساء الشاى ببطء وتلذذ... وعندما اقترب الوقت من النصف ساعة تماماً... ينهضان... ويسيران عائدين إلى حيث يجتمع القادة، بينما يوجه الضابط أسئلة كثيرة له:

ـــ ماذا سنقول لهم، ولم يحضر أحد ليسلمك المسدس... أين وعدك بأنك ستسلمنا المسدس بعد نصف ساعة؟

باحتراس يخلع الدهشان عمامته بيده اليسرى، وبيده الأخرى يمسك بالمسدس الذى كان أسفل العمامة... يقدمه للضابط، قائلاً:

. الدهشان عند وعده دائماً.

فهرس

Contents

